اليـوم قـد ولدت بـأرضي ثـورة ما أبصرت عين الزمان شبيهها[٤٧]

ان الشاعر مخلص في رؤيته وفي دعوته، وان كان في هذه الرؤية شيء من القصور فرضته ظروف الفترة والسياسات الدولية التي تآمرت في مأساة فلسطين وعلى شعبها بتخطيط أبشع مؤامرات الاستعمار الاستيطاني وتنفيذها، مسخرة لها قوى عاتية لا ترحم. ومع ذلك فقد كانت دوافع الأمل لدى الشاعر، كما هي لدى الشعب، أكبر وأقوى من عوامل اليأس، الأمر الذي جعل الشاعر يثق بالنصر «ضمنا له يومنا والغدا»، وان كان لم يضمن من أسبابه الا أمجاد «أمة مؤثلة في العلا محتدا». ولا شك في أنه كان مدفوعا الى هذا الاحساس بفكرة دخول الجيوش العربية الى فلسطين ليلة نظم القصيدة[٤٨] في بلدة «عنبتا»، على الطريق العام بين نابلس وطولكرم، ليلة ١٤ ــ ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨، «والكل» ينتظر «مجيء الجيوش العربية من البلاد العربية... كما وعدنا».

ومهما يكن، فان فترة الخداع كانت قصيرة، اذ لم يمض وقت طويل حتى بدأت النكبة تهبط على الناس بثقلها الرصاصي، فبدأت تتساقط المدن والقرى الفلسطينية، ويضطر الشاعر الى مغادرة مدينته الحبيبة حيفا بعد ظهر يوم الخميس في ٢٢ نيسان (ابريل) ١٩٤٨، دون أن يكون قد مر في توهم خياله انه يغادرها الى غير رجعة ــ حتى اليوم ــ. ويفتقد بعدها الاستقرار، ولا نعود نرى اسم حيفا، كمكان ينظم فيه بعض قصائده، وانما نُحسّ انه ضائع في متاهة بلا حدود... فينظم بعض قصائده في أماكن موزعة بين نابلس، وعنبتا وطولكرم، بل وعلى قارعة الطريق العام بين هذه المدن، أحيانا، وقد بدأ يطعم مذاق التشرد وعذاباته. وبروح من طعم هذه العذابات وتجرعها راح يلقي بعض الأضواء على أسباب النكبة وعواملها. وتقوده طرق التشرد إلى دمشق، وقد تكون قصيدة «على جناح الخيال»[٤٩] المؤرخة في شتاء عام ١٩٤٩، أول قصيدة ينظمها في منفاه في دمشق. وفيها نحس أثر اللوعة والحزن المقيمين في نفس الشاعر، اذ هو يجد نفسه بين عشية وضحاها طريدا من وطنه، وقد تحققت أحلام الصهيونية التي دأب على التنبيه على مخاطرها، ولم يعد بقادر على رؤية أرض الوطن، وليس له الا أن يخاطبه على جناح الخيال وبمساءلة الأطياف عبر ليال دهمها دهر نكوب، وان ظل:

طامعـاً أن يـرى الديـار بـطرف كـاد في دمـعـه يـذوب نحـيبـا

ويسائل ذلك الطيف:

أيهـا الطيف يا ابن جـرح دفين لم تـزده الأيـام إلا نـشـوبـا
هات حدث عن خير أرض حديثـا يجعـل الدمـع سـائـلا ومجيبـا
كـيف وافـيـت أربـعـي وديـاري والليـالي بـهـا تـمـر خـطوبـا؟
والزمـان العسـير يـولي بنـيهـا بـالقضاء المـرير وجهـا قـطوبـا

فليس أمام الشاعر هنا إلا أن يعود بخياله الى شريط حياته فوق تلك الأرض الزكية، قد قضى فيها فجر الشباب الأول، ثم اضطر الى مغادرتها مكرها تاركا فيها فؤاده «يكمل العمر حسرة ووجيبا».

انه في هذه القصيدة الموجعة في تأثيرها يصور مرحلة انتقال عاطفي عميق الدلالة على النكبة والخروج الكبير اللذين فرضا على شعب فلسطين عام ١٩٤٨، نحس فيها بالشاعر مهيض الجناح وهو يدعو وطنه بصوت أسيف الى أن يتصبر ويتجلد، والحسرة